قصة من الأدب الروسي الرفيع :

« الملاك ... »

للفيلسوف الروسي الكبير لوي تولستوي

بقلم الأستاذ مصطفى جميل مرسي

— ٢ —

ولم يكادا يفرغان من الطعام ، ويقومان عن المائدة ... حتى أقبلت « مترونا » على « الضيف الغريب » ... تسائله :

— « من أي البلاد أنت ؟ ! » فأجابها في صوت شاعت فيه الوداعة « لست من هذه البقاع ! ... »

فقالت دهشت « ولكن . ما الذي رمى بك إلى الطريق ؟ »

— « لست أدري . ! . »

— « أتعرض أحد لك بسوء ؟ ! . »

— « كلا ! ... لقد عاقبني الله تعالى ! ... »

— « أما كنت ملقى على قارعة الطريق ؟! ... »

— « بلى عريانا ومثلجا ، وقد لمحني زوجك الكريم « سيمون » فأدركته الرحمة فخلع ما عليه ، وألبسني إياه ، وأحضرني هنا ... فأطعمتني من جوع ، وآويتني من برد ... وأشفقت علي من التشريد والموت ... فجزاك الله خيرا » .

فنهضت « مترونا » وأحضرت له بعضاً من ثياب زوجها القديمة ... وأعدت له مناماً على كثب من التنور يقضي فيه ليلته

باتت « مترونا » في مضجعها تتقلب فلم يزر جفنيها الكرى وما فتئت ذكرى « الغريب » تراود مخيلتها ...

بدا لها كيف أتى على نصيبهم الأخير من الخبز ... فلم يدع لهم شيئا إلى الغد ... فأحست بالحزن يساور نفسها .. والألم يتغلغل في قلبها ... بيد أن تلك البسمة التي رفعها إليها « الضيف الغريب » جالت في صفحة فكرها وجلبت السكينة إلى نفسها وقالت تحدث زوجها في خفوت ، وقد كادت أن تأخذه سنة من النوم : —

« سيمون ! ... » فأجابها في توجس وضيق : « ماذا ؟! »

— « لقد أتينا على آخر ما عندنا من الخبز ... ولست أدري ما الذي نفعله غداً ! ! ليتني أستعير بعضاً من جارتنا « مارثا ! ... »

— « إذا امتد بنا الأجل إلى الغد ... فسوف نرزق من حيث لا ندري ! ... »

فلبثت المرأة برهة لا تنبس ... ثم قالت في رقة « يخيل إلي أنه رجل طيب كريم ، ولكن ما الذي يحمله على الصمت فلا يكشف لنا جلية أمره ؟! . »

— « أحسب أن لديه علة تمنعه ! . »

— « سيمون ! . »

— « نعم ! . »

— « ما بالنا نعطى ! وليس ثمت من يتفضل علينا بعطاء »

فخار سيمون جواباً ... ثم لم يلبث أن قال لها : — « دعينا من هذا الحديث ! ... » وانقلب على جانبه ... وراح يغرى بعينيه النوم بعد أن جفاه . !

* * *

وفي الغداة ... أفاق « سيمون » من نومه ، وكانت الأطفال تعيث في البيت صياحاً ولهواً ، وانطلقت زوجته لتسأل جارتها بعضاً من الخبز ... أما الغريب فكان يجلس على مقعده — في ثياب سيمون الخلقة — يرمي طرفه إلى السماء — وفي عينيه توسل ورجاء ، وقد عاد إلى وجهه بهاؤه وضياؤه عن البارحة ...

فقال « سيمون » في طلاقة ومرح : « هه ! ... أيها الصديق ... إن السغب يدعو الإنسان إلى السعي وراء القوت ، والعري يضطره إلى طلب الملبس ... فعليه أن يعمل ويكد ... فما الذي تعرفه من المهن ؟! . »

— « لست أدري شيئاً ! . »

فقال سيمون في صوت ملىء بالدهش .

— « إن كان للانسان رغبة في التعلم فسيتعلم ؟! »

— « وإن لفي نفسي رغبة إلى ذلك . ! »

- « ما ذا تدعى ؟ ! ... »

— « ميشيل ... »

— « حسناً يا ميشيل ... إن لم تكن فى نفسك رغبة إلى أن تحدثنا عن نفسك ، فهذا من شئونك ... غير أنه يجب أن تكسب رزقك ، فإن عملت بما سأشير عليك به . ! فسوف تجد عندى طعاماً طيباً ، ومأوى حسناً ... »

— « جزيت خيراً ... وإنى لمطيع لما تقول ! ... »

— « إن ذلك غاية فى البساطة ... فانظر إلى . » ثم أمسك « سيمون » بخيط ، ولفه حول إبهامه وراح يجدله فى براعة ... فراقبه « ميشيل » ثم أخذ قطعة من الخيط وثناها على إبهامه وانفك يجدلها كما فعل سيمون وفى براعته وإجادته ، وعلمه سيمون كيف يشمع الخيط ويقطع الجلد ثم يخيطه ... فبرع « ميشيل » فى كل ذلك ... حتى أصبح ماهر البنان كأنه مارس تلك الحرفة طيلة حياته ...

كان لا يبرح يعمل ويعمل دون توقف ، ولا يطعم غير القليل ، حتى إذا ما انتهى من عمله ، جلس صامتاً يحدق فى سماء الغرفة وفى عينيه ذلك الرجاء وذلك التوسل ... ولم يكن يخرج إلى الطريق ، بل يظل حبيس الدار ، رهين العمل ، لا ينطق إلا بكلمات قلائل يضطر إليها ... وما ضحك يوماً ، وما ارتفع لسانه بفكاهة ... ولم ترتسم على وجهه ابتسامة أبداً ، إلا تلك التى أضاءت على جبينه يوم أن قدمت إليه « مترونا » العشاء ... !

* * *

وتتابعت الأيام وتعاقبت الشهور ... وميشيل يعيش ويعمل جهده مع « سيمون » ... وجرى إسمه على كل لسان ، وطبقت شهرته كل مكان ... حتى طفق الناس يأتونه من كل صوب وفج بما ملونه ... حتى ازدهر حاله . وزال عنه بؤس الحياة وعسرها .

كان « سيمون » وميشيل يعملان ذات يوم حينما جلجلت بباب دارهم الأجراس فأسرع كل منهما إلى النافذة ، يستجلى الأمر ... فأبصرا بعربة « زلاقة على الثلج » يجرها ثلاثة من الجياد المطهمة الصافنة ... تقف بباب الدار ، وخف تابع إلى بابها ففتحه ... فظهر منه سيد جليل مهيب — عليه جبة من الفرو الثمين — ووقف بباب الكوخ ، فسارعت « مترونا » إليه تفتحه على مصراعيه ، وترحب بقدم الضيف الجليل فطأطأ الرجل رأسه عند ولوجه الباب ... فلما انتصبت قامته المشوقة كاد أن يمس رأسه سقف الغرفة فنهض سيمون وانحنى إجلالا للضيف وقد سرى إلى نفسه الدهش ... فما رأى مثل هذا الرجل فى عظمته ورفاهيته فقد كان سيمون هزيلا نحيفاً ، وميشيل صدعا رقيماً ... كما أن « مترونا » كانت ضاوية الجسد ، جافة العود ...

أما هذا السيد ، فيخيل لمن يراه أنه من عالم آخر وجنات مكتظة مليئة ... ووجه مطهم شاعت فيه الحمرة الوردية ، وجسد زهم كالفيل فى هيئته وبدانته ، وعنق أقد كعنق الثور وما أن جلس على المقعد حتى قال « من منكم صاحب العمل ؟! » فدنا منه سيمون وقال فى صوت أصحل من الرهبة « أنا يا صاحب السعادة !! »

فصاح السيد بتابعه « هيا ... أحضر الجلد ... يا « فدكا » فلما أحضره ، ووضعه على المائدة ... قال السيد مشير إليه : — « أنظر أيها « الأسكاف » أترى هذا الجلد ؟ . »

— « أجل يا صاحب السعادة ... إنه أثمن جلد رأيته فى حياتى ! . »

— « أبمقدورك أن تصنع لى حذاء منه ؟ ! »

— « أجل يا صاحب السعادة ! .

— « أتستطيع !؟ حسناً ... فلا يغب عن بالك لمن سوف تصنع هذا الجلد الثمين ... استمع ... ينبغى أن تجعل لى منه حذاء أحتذيه عاماً كاملا ... لا يبلى ولا يخلق . أفهمت إن لم يكن بمقدورك هذا ، فصارحنى ... فإنى أود حذاء أحتذيه عاما بأكله ... وإنى لأحذرك الآن وإلا فسوف يكون مستقرك السجن وإذا لم يبل فى مدى عام ... فسوف أمنحك عشر روبلات نظير ذلك ... »

فارتعدت فرائص « سيمون » وعجز عن الكلام ... والتفت إلى « ميشيل » ووكزه قائلا فى همس وحسيس « أنأخذ هذا العمل على عاتقنا ؟ ! » فأومأ « ميشيل » برأسه موافقاً ... فانفرجت أسارير « سيمون » وسرى عنه همه وجزعه ... وراح يقيس قدم السيد ... يتعرف عسيها ويقدر أخمصها ... ويسجل ذلك على ورقة تمنيه على صنع الحذاء ... فلما انتهى من ذلك

قال له السيد وهو يجول طرفه فى أرجاء الكوخ .

— « لا تجعلها تضيق بقدمى ! . » ... فلما وقع طرفه على « ميشيل » قال فى تساؤل :

— « من هذا ؟ ! »

— « إنه عامل عندى ... وسوف يتشرف بخياطة حذائك »

فتحدث السيد الجليل إلى ميشيل قائلا « أنت يا ذا ... لا يغيب عن بالك أنى أود حذاء مريحاً ... يمكث عندى سنة ... هه ... سنة بأكملها ! . »

***

نظر « سيمون » إلى « ميشيل » ... وكان هذا يحدق فى ركن من الغرفة فوق السيد ... وقد شرد خياله عما هم فيه ... وكان يحدق .. ويحدق ، وعلى غرة ارتسمت على ثغره تلك الابتسامة العذبة ، وأشرق وجهه وأضاء ... فزجر السيد قائلا :

— « فيم تحملق أيها الأبله ؟! خير لك أن تنظر إلى ما يدر عليك رزقك ! . »

فقال سيمون « سيعد لك الحذاء يا صاحب السعادة ... فى الحال ... » فنهض السيد وهم بالخروج والغضب يحمر فى عينيه ، واستقر فى عربته فانطلقت تجلجل أجراسها ... فلما اختفت فى منعطف الطريق ... قال سيمون — وما زال الدهش يسيطر على نفسه — « هذا مثال لإنسان جبار ... لا يقتله المرؤ ولو بعطرقه ... وأحسب الموت يتخوف من جبروته ... فلا يمس له جسداً ! . » ثم حدث ميشيل قائلا :

« حسناً لقد أخذنا على عاتقنا أن نصنع حذاء له ... ولكن ينبغى ألا يكون ذلك سبباً فى متاعب جديدة .. إن الجلد لثمين وإن صاحبه لجاد فى طبعه ... فيجب ألا تخطئ معه هيا ... يا ميشيل ، إن عينيك أدق من عينى ، ويديك أبرع من يدى ، فهاك الجلد ، فقطعه حسب المقياس ... وسوف أخيطه أنا ! . »

فبسط « ميشيل الجلد على القطع ثم طواه طية واحدة ... وراح يقطعه بالأزميل ...

كانت « مترونا » ترقبه فى عجب ودهش ... فقد طالما رأت كيف تحذى النعال وأدركت أن « ميشيل » لا يقطع الجلد على طريقة الأحذية ... بل لشىء آخر لا تعرفه هى ، فقالت فى نفسها « لعلى لا أعرف شيئاً عن صناعة الأحذية للسادة والأشراف ! . وأحسب أن ميشيل يعرف المزيد عنها ... سوف لا أتطفل عليه ! . »

فلما فرغ ميشيل من القطع ... أمسك بخيط واحد وراح يخيط الجلد — كأنه من الخفاف — لا بخيطين كما تخيط الأحذية فعاد الدهش إلى « مترونا » من جديد ... غير أنها أمسكت عن تدخلها ...

ومكث ميشيل يعمل حتى وافت الظهيرة ... وقام سيمون يلقى نظره إلى ما أتمه ميشيل ... فلم يلبث أن راعه ذلك وقال فى أحيح وعجب : « آه ! . كيف تفعل هذا يا ميشيل ؟ ! لقد لبثت معى سنة بأكملها — لم تأت أثناءها بخطأ قط فكيف تقع فى هذه الغلطة التى ستوردنا مورد الهلاك ! . لقد قال إلينا السيد أنه يود حذاءاً . وها أنت قد جعلت له من جلده الثمين خفاً ... سوف يثير حنقه علينا وما فى قدرتنا أن نأتى له بجلد مثله ... لقد حطمت حياتى يا ميشيل ! . »

فما وفيا هو يملك ألفاظاً من التوبيخ والعتاب ... حتى سمعوا طرقاً على الباب وأبصروا من النافذة رجلا يترجل عن جواده ويربطه فى حلقة الباب ... ففتحت له « مترونا » ... وكان ذلك الرجل هو التابع الذى صحب « السيد الجليل » فى الصباح ... فقال لهم : « لقد بعثت بى سيدتى فى أمر الحذاء ! . »

فقال سيمون فى جذع :

— « ما ذا عن الحذاء ؟! »

« إن سيدى ليس فى حاجة إليه !. فقد مات . ! »

— « هه ! . أحقاً هذا ؟ ! »

— « أجل ... لقد دهمه الموت وهو فى مركبته ! . فلما بلغنا المنزل ... جاء الخدم يعاونونه ... فقد حرجت جثته على الأرض كالكيس الممتلئ ... وقد بعثت بى سيدتى لأقول لكم إن السيد الذى أتاكم هذا الصباح ليس بحاجة إلى الحذاء ... بل ينبغى أن تعجلوا بعمل خف لجثته ... كى أحمله إليها الآن . »

فقام ميشيل ... وضم بقايا الجلد إلى الخف بعد أن مسحه بمئزرته وسلمه إلى الخادم الذى انطلق به قائلا : « وداعاً أيها السادة ! ... »

***

كرت السنون ... وها هو ذا ميشيل يعيش عامه السادس

مع سيمون وعائلته لم يتحول عما درج عليه ... ولم يتغير شيء من طبعه ... لا يخرج أبداً من الدار ... ولا يتحدث إلا بمقدار ولم يرتسم الابتسامة على شفتيه إلا مرتين لا تثلثهما أخرى ...

واحدة حينما تفضلت عليه « مترونا » بالطعام ... والثانية حينما كان يحدق في ركن من الغرفة فوق « السيد الجليل » وكان سيمون على وفاق مع عامله . ولم يسأله يوماً من أين أتى بل كان في خشية من أن يرحل ميشيل عنه ...

وبينما هم جميعاً في الدار ذات يوم ... وكانت « مترونا » تضع إناء على النار ، والصغار يمرحون في لهو وعبث ، وسيمون جالس يخيط حذاء في يده ... أما ميشيل فكان مستغرقاً في عمله على كثب من النافذة ...

ووضع أحد الأطفال يده على كتف ميشيل . ونظر من النافذة وصاح قائلا :

« أنظر ... ياعم ميشيل ، هناك سيدة معها بنات صغيرات يظهر أنها تريد دارنا إن واحدة من البنات تعرج في سيرها ! »

فألقى ميشيل بما معه وصارع ينظر من النافذة إلى الطريق ... فتعجب سيمون ، فما رأى « ميشيل » يوماً ينظر إلى الطريق في هذه اللهفة ... فدعا ذلك سيمون إلى أن ينظر هو أيضاً كي يستبين ذلك الشيء الذي أثار ميشيل . فرأى سيدة حسنة الهندام تتجه حقاً إليهم وتقود طفلتين عليهما أردية من الصوف وشمائل من الفرو ... يعجز المرؤ عن أن يميز إحداهما عن الأخرى إلا تلك التي يعترى ساقها اليسرى شيء من العرج .

وولجت السيدة بطفلتيها الغرفة ... وقالت في صوت رقيق

— « سعدتم صباحاً ... أيها القوم الطيبون ؟ . »

فقال « سيمون » :

— « سعدتي صباحاً ... سيدتي الفاضلة ... ماذا في مقدورنا أن نعمله لك ؟ ! »

فجلست السيدة على مقعد ... وقد التصقت بها الطفلتان في خوف ممن في الكوخ .

— « أود ... حذاءين من الجلد لهاتين الطفلتين ، للربيع ! ... »

— « إننا لم نصنع من قبل مثل هذه الأحذية الصغيرة ... غير أننا قادرون على ذلك ... إن ساعدني « ميشيل » أستاذ صناع في هذا ! . »

وألقى سيمون بنظرة إلى ميشيل ... ليرى أثر الإطراء والثناء عليه ... فوجد هذا جالساً يحدق في الطفلتين الصغيرتين فانتاب سيمون العجب وتولاه الدهش ... حقاً كانت الطفلتان جميلتين لهما وجنات وردية وشعر معقوص وعيون نجل ... ترتدي كلتاهما ثياباً فاخرة من الصوف والفراء ... بيد أن سيمون لم يفطن إلى سر تحديق ميشيل إليهما كأنه يعرفهما من قبل !

كان في حيرة من أمره ... فانطلق يحدث السيدة ويقدر الثمن معها ... وبعد مساومة وإقرار ... هم أن يأخذ مقياسهما فقالت السيدة وهي ترفع قدماً للبنت العرجاء « إن هذه القدم عرجاء فاعمل لها حذاء على حدة ... أما القدم الأخرى وقدمي الطفلة الثانية ... فهي صحيحة متشابهة وحجمها واحد ... إنهما توأمتان ... »

فسجل سيمون ما قاسه على وريقة صفراء ... وقال يحدث السيدة :—

— « ما الذي حدث لها ؟! فأصابها بهذا العرج ... إنها تبدو جميلة ... أو ولدت هكذا ؟ ! »

— « كلا ... فلقد حصرت أمها قدمها فالتوى ... »

فتعجبت « مترونا » وتساءلت من تكون هذه السيدة ؟ ! ومن تكون هاتان الطفلتان ... فقالت في صوت شاع فيه ما يجول في نفسها من دهش .

— « ألست أمها إذن ؟ ! »

— « كلا ... يا سيدتي الفاضلة ... لست أمها ، ولست إحدى قريباتهما ... لقد تبنيتهما ... »

فزاد عجب « مترونا » وهي تقول :

— « ليستا طفلتيك ... وتحبينهما هذا الحب ؟! »

— « ليس لي حيلة في ذلك ؟! أطعمهما وأربيهما ... ولقد رزقني الله ولداً ولكنني احتسبته ... وما كنت أحسبه مثل حبي هاتين الطفلتين ! .

وطفرت من عينها دمعة حارة ... تألقت في مقلتها ... ثم لم تلبث أن انحدرت على وجنتها ... فمحتها في هدوء وحزن فقالت مترونا في أسف وتأثر : —

— « معذرة ... ما كنت أحسب أن هذا يجلب إلى نفسك الحزن والألم ... ولكن من هي أم هاتين الطفلتين ؟ . »

« البقية في العدد القادم »

مصطفى جميل مرسي